على عتبة الذكرى الأربعين لرحيل حبيب سرور

رسام الوجوه والطبيعة والبيئة المحلية

السفير 10/09/1978

سجلت معارض السنوات الأخيرة الماضية عودة إلى معطيات محطات فنية سابقة في التشكيل اللبناني، من هنا أهمية التعريف بالفنانين اللبنانيين الرواد، كمحاولة لإيجاد رابط بين التجارب وفرز تيارات تشكيلية، يمكن أن تسهم في تجاوز الأزمة الابداعية التي تمر بها أكثر من عاصمة عربية.

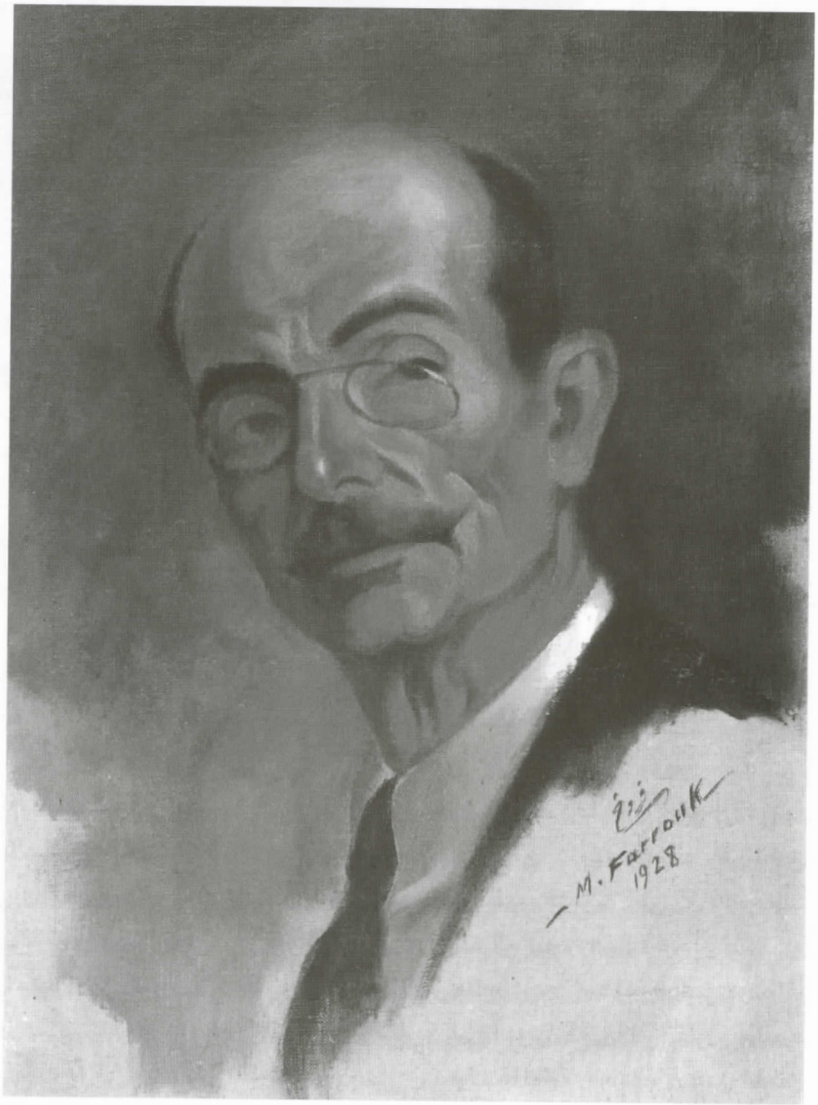

حبيب سرور بريشة مصطفى فروخ

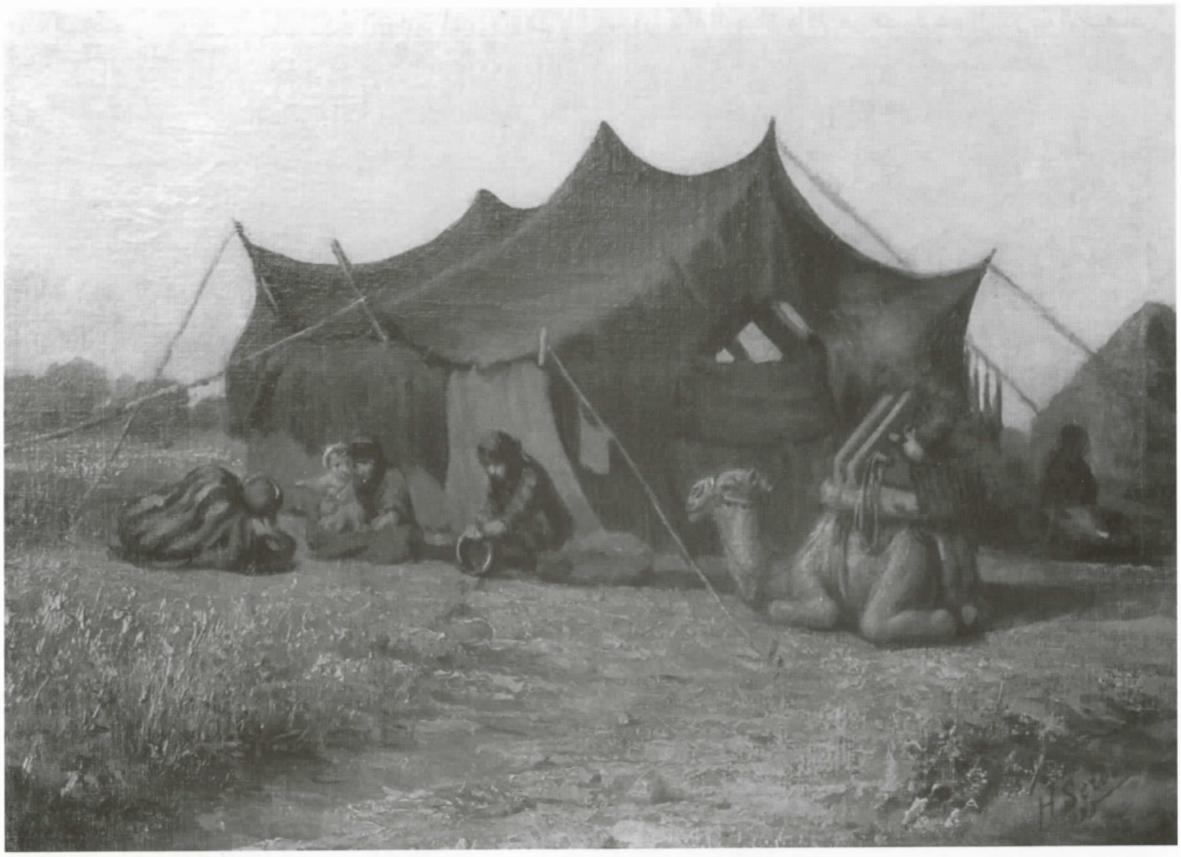

لوحة استراحة البدو في سهل البقاع

تقتضي عملية التواصل مع التراث التشكيلي المعاصر، البحث الجدي في تكريم رواد الحركة الفنية اللبنانية وكشف النقاب عن نتاجهم وتجاربهم ومعاناتهم في ترسيخ الفن والثقافة، إلا أنه، كلما تعمق الباحث في تحليل تجارب الرواد، ازداد قناعة بعمق الإهانة التي تلحق بالفنانين اللبنانيين المعاصرين، جميعهم دون استثناء، نتيجة غيابهم وإهمالهم المقصودين أحياناً عن تكريم جيل رواد الحركة الفنية اللبنانية.

الجدير بالذكر، أن العديد من الفنانين طالبوا، منذ مطلع السبعينيات، بإنشاء متحف وطني يحفظ التراث من الضياع، بالإضافة إلى إدراج مادة تاريخ التشكيل الفني اللبناني المعاصر لتدرّس في معهد الفنون الجميلة. إلا أن تلك المطالب كانت تراوح مكانها، من خلال مبادرات فردية، وغياب مقصود، ومصالح فردية، من قبل فناني جيل الستينيات، الذين إهتموا بمتاهات إختبارات التشكيل المعاصر ، دون اكتراث بالتراث الفني المحلي، الذي لعب دوراً أساسياً في خلق نواة الحركات الفنية في الوطن العربي، وبالرغم من صدور العديد من الدراسات المقتضبة عن الفن اللبناني المعاصر، فإن تلك المحاولات لم تكن تعطي الرواد حقهم وأهميتهم من الناحية التحليلية الفنية.

مع قدوم الخريف المقبل، تمر الذكرى السنوية الأربعين لرحيل الفنان حبيب سرور (1863- 1938) الذي يعتبر أحد مؤسسي النهضة الفنية في لبنان. درس الفن في روما (ما بين 1877و1888) وتأثر إلى حد بعيد بأجواء النهضة الإيطالية. عاش لسنوات في مصر (مابين 1889و1891)، وبعد عودته الى بيروت عيّن في العام 1915 أستاذاً للرسم في المدرسة السلطانية العثمانية في منطقة البسطة التحتا التابعة للمكتب السلطاني والتجاري العالي للحكومة العثمانية. وقد اعتبر مرسمه محجاً لكبار رجال الدولة والجيش والطبقة المثقفة، الذين خلدهم في لوحات، عرفت شهرة واسعة في الأوساط الثقافية التركية. أجمل لوحاته الشهيرة، في

هذه الفترة صورة وجه الأديبة التركية "خالدة أديب خانم"، إضافة الى العديد من صور وجوه كبار قادة الجيش والعائلات البرجوازية اللبنانية وكان ابرزها عائلة سرسق، بالاخص إثر الصداقة التي جمعته مع ألفرد سرسق الذي عاش لسنوات في كنف قصره بعد أن حوّل مبنى مربط الخيل في حديقة القصر الى محترف فني تقاسمه مع سرور، الذي تتلمذ على يديه العديد من الفنانين أمثال مصطفى فروخ، عمر الأنسي، صليبا الدويهي، ورشيد وهبي.

كتب فروخ في مذكراته عن حبيب سرور يقول: " لقد امتاز فن أستاذنا العظيم بقوة الرسم وضبط اللون وصدق العاطفة وصفاء الفكرة ومتانة التأليف، ثم جمع بين كل هذه الأمور، إخلاصه العجيب.. كان حبيب سرور، رحمه الله، في أسلوبه واقعياً، واضح المعالم، صريحاً كل الصراحة لا غموض فيه ولا التواء شأن فناني النهضة الكبرى الذين جعلوا الطبيعة نقطة إنطلاق، والإخلاص للفن هدفاً فخلقوا للحضارة فناً رفيعاً خالداً على الأجيال".

إمتاز نتاج سرور بالغزارة وبالأخص في رسم الوجوه والشخصيات المعروفة والقرويات والرهبان ومناظر الطبيعة اللبنانية والطبيعة الصامتة، بالإضافة إلى رسوم المواضيع الدينية التي تحمل جميعها نفحة كلاسيكية شاعرية وألواناً شفافة (قاتمة في الزيتيات، ومتوهجة في الباستيل)، وتتميز لوحاته الدينية بمتانة التأليف المحوري، القريب من اسلوب كبار الفنانين الكلاسيكيين المحدثين، لاسيما ديلاكروا.. الجدير بالذكر أن سرور أطلق في بيروت مطلع القرن العشرين موضة رسم الوجوه"بالباستيل". ويعود السبب في ذلك إلى صعوبة استيراد الألوان الزيتية، في تلك الحقبة من الزمن، وإلى ثمنها الباهظ وإلى سهولة التعامل مع الألوان الشمعية التي هي بحد ذاتها ذات منشأ شرقي بالإضافة إلى إمكانيات السرعة في إنجاز العمل الفني وتأمين رواجه بأرخص الأسعار،(يقول رشيد وهبي انه إكتسب سر شفافية الباستيل من استاذه سرور الذي يعتبره من ابرع الملونين).

كتب قيصر الجميل في ذكرياته عن حبيب سرور يقول: "مصاعب وعقبات كثيرة، وقفت في طريق حبيب سرور، عندما جاء فاتحاً بيروت، بجيش من الألوان والريش. لقد تمكن هذا الجبار، من زرع بذور الفن في المدينة والقرية، فلا يكاد يخلو بيت في لبنان من صورة لحبيب ولا دير من أثر له، لقد تعشق سرور حياة الرهبان وأكثر من تصويرهم إلى درجة الاختصاص".

ويضيف قيصر في ذكرياته الفنية عن أستاذه: "كان سرور يكره تصوير السيدات، كان يحب التنقل من دير إلى دير ومن صومعة إلى صومعة يفتش عن راهب سلم من ريشته فلا يجد..كان يحب حياة البرية والبادية، كان مغرماً بتصوير البدويات، ففي نفسه وحشة لم يجد من يؤنسها وفي قلبه أنين خافت متقطع، أنين رباب تعزف عليه يد عاشق منازع حرم عليه رؤية من أحب". (يروي سعدي سينوي أن سرور إتخذ خادمته موديلا حيا لرسم المرأة العارية، وسرت اشعاعات عن حب متبادل بينهما، مما أثار زوجته التي هجرته مع ولده الوحيد نعوم الذي تربى على كره والده).

تقطف لوحات سرور الحالات اللونية بغنائية رومانسية ملفته، وذلك في مخاطبته لنسيج المنظر الطبيعي ولتعابير الوجوه، كما تعكس مناخ القرية وأجوائها الشعبية الحميمة ومناظر السكنية والتأمل، بالأخص في أعماله الدينية .

يقول قيصر حول إنصراف حبيب سرور لرسم الطبيعة الصامتة: "فر حبيب سرور من الثرثرة، فتعشق الطبيعة الصامتة، فسلة الصبير، الحجال، العصافير، السمك، السفرجل والدراق، كلها شاهدة على مقدرته الفنية وعلى قوة ملاحظته في التلوين. ولكني لا أعرف له صوراً عن التفاح. ولعله، أيضاً نفر من هذه الفاكهة الجميلة اللذيذة، لأنها ترمز إلى اللذة الجنسية، وتذكره بخدود الصبايا القرويات. إنها ذكرى تؤلمه، وتفتح في قلبه جروحاً، ساعد العمر على إندمالها".

تكمن أهمية أعمال حبيب سرور في تجسيدها لمواضيع منتزعة من صميم الحياة اللبنانية، بالرغم من كونها أمينة لهاجس الكلاسيكية المحدثة (مناظر الطبيعة الصامتة). ومن لوحاته التي عرفت شهرة واسعة في العشرينيات لوحة "كاهن الضيعة" وصورة "البطريرك يوحنا مارون" التي رسمها خلال إقامته في روما.. ولوحة الأميرة البدوية ووجوه البدويات والحجال والعصافير وسلة الصبير.

يقول مصطفى فروخ في مذكراته: "كان الأستاذ سرور، إلى جانب مقدرته الفنية على جانب كبير من الخلق الطيب والنفس الرضية والوفاء والمحبة لأصحابه وتلامذته. فكان رحمه الله متفائلاً، ما عرفته يوماً متبرماً ولا حانقاً، همه من الحياة أن يفوز بخلق لوحة جديدة تعبرعن شعوره وترتاح لها نفسه... لقد خدم بلاده بأمانة وتجرد وإخلاص".

لوحة الاميرة البدوية